رسالة الصحفى

نحن مصريون ...

فمن واجبنا أن نعرف مصر

كيف اقرءت على دراستى لتاريخنا المصرى القديم ؟

للاستاذ الكبير عبد القادر حمزه

تناولت الدراسة فى مراحل التعليم كله ، فكنت تلميذاً فى المدرسة الابتدائية ، فتلميذاً فى المدرسة الثانوية ، فتلميذاً فى مدرسة الحقوق ؛ ولا أنكر عليك أنى حكنت فى هذه المراحل — على تفاوت خطوانها — كثير الحفاوة بهذه الدروس التى كانت تزجى إلينا عن تاريخنا المصرى القديم ، وكانت هذه الدروس تلابس فى نفسى مالابسه الجوانب المحببة إلى النفس من عواطف ، فلم تذهب آثارها فى زحمة العلوم الأخرى التى كانت تدعونى إلى مسايرتها فى محبة طويلة ، وتأمل كثير ، وإنما بقيت حيث هى من دخائلى وطوايا .

وحين تخرجت فى مدرسة الحقوق ، وتهيأت لى أسباب الصلة بالمجتمع على وشيجة أوفر قوة ، وفى موطن أكثر رحابة ، أتيح لى أن أمضى إلى « الأقصر » لأقضى فيها أياما ، أعدت إلى ذكريات التاريخ القديم ، وكان كل شىء من حولى يؤكد لى أن دراساتى المدرسية لا جدوى فيها ولا غناء ، وأن هذا التاريخ الذى يلونا قصره فى كتبنا المدرسية لاقدرة له على أن يلزم النفس مكانة الثقة والهدوء ، ذلك أنى أشهد آثاراً ، لم تعها صفحات الكتب وألمس من ورائها شعوراً لم تلمسه الأقلام التى دبجت لنا هذه الصفحات .

وأصدقك القول أنى عجبت لهذا التنافر الحائل ، بين مشاهد التاريخ التى تستوعبها العين فى الأقصر ، وبين مشاهد التاريخ التى وعيتها من صفحات الكتب المدرسية جميعاً ، ولا خلاف على أن هذا التنافر قد مهد لى سبيل الدأب الكادح ، حتى أصيب من حقائقنا القديمة

مالم تسع إليه وزارة المعارف من عهد بعيد حين اطمأنت إلى إخراج تاريخنا على ماألفنا من ضيق ، وعرفنا من قصد ، بينما هي لم يقنعها أن توجه الأذهان فى دراسة الثورة الفرنسية وجهة توافق الأسلوب الضيق الذى عمدت إليه فيما يتعلق بتاريخنا المصرى ، وإنما كان الشأن لديها فى دراسة هـذه الثورة الفرنسية هبوطا بألوان من الأسباب والأعناب ، وما على المصرى من جناح أن يستوعب ثورة الفرنسيين فى أحب مصادرها وأوسع ساحاتها ، فى هـذه الثورة مايهديه إلى معرفة الجوانب الرائعة من جهاد سعى به مبتكروه إلى تركيز المبادىء الانسانية تركيزاً فيه خير للفرد ، وفيه للجماعة نفع كثير . .

على أن هذه الدراسة المستفيضة من جانب التلميذ المصرى لثورة فرنسا — على مافيها من خير — لايمكن لها أن تكون عذراً مقبولا عن هذا الضيق الذى يدفع التاريخ المصرى إلى ركن ضيق ، وإلى فج عميق ، فما التاريخ المصرى القديم إلا مرحلة من مراحل المجد القومي الخالد ، ومن حق هذه المرحلة أن يدركها المصريون إدراكا شاملا حتى يتأثرها منهم من يهتف لبلاده بالحياة سعيدة موفقة سديدة الخطوات . . .

* * *

وبقيت هذه الموازنات ، وإلى جانبها خطرات أخرى . تلاحقنى بعد إذ تركت الأقدر وتمضى معى فى جانب أختلف إليه ، وفى كل موطن أستقر فيه ، وحببت إلى التعرف الى آثارنا فى أشتات مواطنها فأكثرت من غشيان هذه المواطن ، أطيل فى مشاهدها التأمل ، وأستوحي ذلك الصمت البادى عليها توفيقاً لى فيما عقدت العزم عليه .

ولعلك أدركت ، على أى جديد عقدت العزم وشدت التوفيق ، فما يطوف بى إلا خاطر واحد يحفزنى على أن أدرس تاريخنا المصرى القديم دراسة استقصاء واستقراء وبحث وتحقيق حتى أعلم ، أى جوانبه كان خيراعلى العالم ، وأى نواحيه كانت على الدنيا سعادة ونعماً . . .

* * *

كانت مرحلة عسيرة مضنية شاقة ، مضيت فيها فى أول الأمر وأنا على عهدى من الغبطة فلما توسطتها رأيت الغموض المحزن يكتنفها من نواحيها . ولما خرجت منها رأيتنى لم أظفر بشىء له خطره ولكنى ظفرت بقوى جديدة هيأت أن أتابع السعى حتى انتهي إلى غاية المأمول . . . ذلك أنى التمست تاريخنا القديم فى مصادر مصرية . فلم أعثر — بعد طول البحث — إلا على كتابين اثنين : أحدهما للأثرى المرحوم أحمد نجيب والآخر للأثرى المرحوم أحمد كمال ولقد صحبتهما ما وسعنى جهد الصحبة . ولكنهما لم يقنعانى بالأخذ عنهما كمصادر يحق لها أن تهدى الباحث . لانهما لا يكفيان فى هذا الباب فتركتهما . وأنا شديد الاسف على أن تاريخنا الذى أيقظ الدنيا بأكملها . لم يلهم واحداً من علمائنا فكرة السعى إلى تحقيقه

تحقيقاً يرضى الباحث ويهديه . . .

خرجت إذن من هذه المرحلة على ما أسلفت لديك . وتابعت السعي وراء المصريات السحيقة في كتب فرنسية . فاذا بي حيال عشرات وعشرات من هذه الكتب ، كتب جانب منها بأقلام فرنسية خالصة لأنها مؤلفة بأقلام جماعة من علماء الفرنسيين ، وكتب الجانب الآخر بأقلام فرنسية أيضاً ولكنه منقول عن لغات عديدة كالايطالية والالمانية والانجليزية . . . ولقد رأيتني أنصرف إلى هذه الكتب ورأيت فيها بحوثاً من حقها أن تستهوي المصري . قدر ما ترفع الستر عن وجوه قديمة شهدتها شواطىء النيل . ولقد أيقظت هذه الكتب في نفسي عاطفة من العجب والدهشة . ذلك أنها أخذت تحدثني عن حياتنا الغابرة حديث ثلوث فيه حقائق لو أنها شهدت الضوء في أجوائنا من زمن بعيد لاستطاع هذا الجيل أن يخرج إلى العالم وعلى رأسه نزعات أخرى ، هي أثر من ذلك الوحي الذي تحدثنا به تلك الحقائق التي اهتديت إليها من حديث هذه الكتب إلى — نعم .. فقد عرفت أننا كنا أعمق الناس إلى الامكان الآراء التي خلعها على أنفسهم علماء يذكرهم العالم اليوم في إكبار وإجلال وتوقير — نعم .. وقد عجبت موفور العجب وجزيله ، لأن هذا التراث العلمي الذي ابتكره أجدادنا بقي مقسياً في بلادنا حتى اليوم . ينبهه العلماء ويستولون عليه — نعم .. وقد عجبت عجباً كثيراً لهذا الضيق الشامل يشمل تاريخنا المتعدد الجوانب . فلا يزيده المشتولون عن بثه وإذاعته إلا انكماشاً وضيقاً . حتى اطمأنوا إلى إخفائه لصفحات قليلة في كتب لا تبعث قراءها في النفس عاطفة من عواطف التأثير . . . عجبت لهذا كله لأني — وهذا ما يوافقني عليه كل مصري فيه — أعلم أن دراسة التاريخ لا تعدو أن تكون بنا لروح العزة القومية في نفوس الناشئين ، وحسبها ذلك الطابع تدفع به الناشيء ليصاحبه شاباً ورجلاً

* * *

هذا أنبل النتائج التي أصبتها من دراساتي فأزجيتها إلى الشعب راضياً مغتبطاً ، وها أنت ترى أني ألتمس السعي إلى توسيع نطاقها . توسيعاً من شأنه أن يخلق لمصر جيلاً يعرف تاريخها معرفة لا ضيق فيها ولا غموض .

وما أعتقد إلا أن وزارة المعارف حقيقة أن يشغلها هذا السعي ، لأنه بعض ما تنهض به من واجب الحرص على تراثنا القديم أن يعيش أبداً في موطن غريب

وقد يهون عليها البلوغ إلى النهاية من توفية تاريخنا المصري حقه أن تعمل :

أولاً : على تدريس التاريخ المصري القديم في سياق أوسع ساحة ، وأرحب ساحة ، وأكثر أبواباً ، وأضفى أثواباً

ثانياً : أن تتعهد بالترجمة جانباً من الكتب الأجنبية التي قصرها مؤلفوها على البحث

فى التاريخ المصرى القديم ، فأن نقل عليها ـ من هذا الجانب ـ عبء العمل ، فقد لا يكون أمراً شاقاً ولا شيئاً عسيراً عليها أن تعهد إلى جماعة من القادرين على التأليف فى هذا الموضوع أن ينهضوا إلى إخراج كتاب ـ أو كتب فى اللغة العربية ـ لبدرس الطلبة فيها تاريخ بلادهم فى ثوب جديد »

وما أعتقد إلا أن وزارة المعارف ، حين تنهض بهذا العمل المنشود المذكور ، ستدفع عن الناشئين شر الجهل بتاريخ من حقهم أن يعلموا عنه كل شىء ، لأنه تاريخ مصر ، ومن واجبنا أن نعرف تاريخ مصر.

عبد القادر حمزه

كلمات مأثورة

١

- لم أر كالشرقيين رجالا تكمن القوة فى أفرادهم ويظهر الضعف فى مجموعهم

(سفاريك ابراهيم)

- أحب التوحيد فى ثلاثة : الله ، المبدأ ، المرأة . وأحب الحرية فى ثلاثة: حرية المرأة فى ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الرجل فى ظل الله . (اسماعيل باشا صبرى)
- لا حياة لهيئة الاجتماعية إذا لم يكن فيها نساء رافيات لأن المرأة روح الاجتماع (نابليون)
- المرأة الجميلة تسر العين ، والمرأة الفاضلة تسر القلب ، الأولى جوهرة ، والثانية كنز (نابليون)
- ينبغى أن يكون الحب منبعا للسعادة لا مصدرا للشقاء (نابليون)
- إنى وإن أكن أصبحت ملكا لم أنس أنى وطنى ، ما جعلت يوما الحياة عندى اهتماما كبيرا ، ما كنت لأحاول ولم أحاول أن أزحزح قدمى قرارا من الموت . ليست قيمتى بالعرش ولا بالملك ، إنما قيمتى فى نفس كلمة « مستحيل » فى اللغة الافرنسية . إنى لا أعرف هذه الكلمة . إن كلمة مستحيل لا توجد إلا فى قواميس الجهلاء (نابليون)
- يابنى أكثروا من النظر فى الكتب وازدادوا فى كل يوم ، فأن ثلاثة لا يستوطنون فى غربة : الفقيه العالم ـ والبطل الشجاع ـ والحلو اللسان (ملك الهند وكان له أربعون ولدا)
- كلام العاقل كله أمثال ، وكلام الجاهل كله ملال (سابور بن أردشير)